مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 1 السنة: 2022
ص: 497 - 507 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الدائرة السردية في الرواية الفرنكوفونية (نجمة) أنموذجا

The Narrative Circle in the Francophone Novel, The example of Nedjma

فتيلينه محمد [1] * / Mohamed Ftelina[1]
فنطازي محمد [2] / Mohamed Fantazi[2]
مخبر اللسانيات التقابلية وخصائص اللغة
جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)
Université Amar Telidji Laghouat- Algeria
ftelinamohamed@gmail.com[1] mfantazi@yahoo.fr[2]

تاريخ الإرسال: 2021/06/30	تاريخ القبول: 2021/08/31	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

تقوم فكرة المقال على أوجه التشابه بين نص نجمة في دائريته والقصيدة الجاهلية. وتبرز العناصر التي تم توظيفها من طرف الروائي عبر الشكل السردي وأهم عناصره كالمكان والزمان والأحداث، في المطالع الطللية والرحلة الجاهلية بالانتقال من مكان إلى أخر والعودة أخيرا إلى المضارب الأولى، مع الإشارة إلى العناصر والخارجية المؤثرة كالبحث عن موطن الماء والكلأ والذود عن القبيلة من هجمات القبائل الأخرى، وعلاقة كل تلك العناصر بدور الشاعر، الذي استمد منه الروائي نسجه السردي.

بعد المقارنات وإبراز الشواهد، ينتهي المقال إلى أن نص نجمة المبني على أساس الأسطورة، يتفق في مبناه على الدائرة السردية للقصيدة الجاهلية بدءا بمطلعها وصولا إلى ختمتها ومرورا بعناصرها المهمة الأخرى.

الكلمات المفتاح: نجمة، الدائرة، السردية، القصيدة، الأسطورة، القبيلة.

Abstract :

The article draws on the similarities between Nedjma's text in its narrative circle and the pre-Islamic poem. The elements that employed by the novelist through the narrative form and its most important elements, such as place, time and events, emerge in talismanic views and the pre-Islamic journey by moving from place to place. Another and finally returning to the starting point. With reference to influential external elements such as the search for the habitat of water and pasture and the defense of the tribe from attacks by other tribes, and the relation of all these elements to the role of the poet, from which, the novelist drew his narrative

* فتيلينه محمد. ftelinamohamed@gmail.com

framework. The article concludes that Nedjma's text, which based on the myth, agrees in its structure with the narrative circle of the pre-Islamic poem.
Keywords: Nedjma. Circle. Narrative. Poem. Myth. Tribes

مقدمة:

منذ أن تم طبعها، شغلت رواية نجمة للروائي الجزائري كاتب ياسين القراء الفرنكفونيين والنقاد على حد سواء. وتم التفاعل معها من جانبيها الظاهري والمضمر، وهكذا تم الكتابة عنها عن الشكل البنائي، ومحتواها الواقعي الممزوج بالأسطورة[1]. إضافة إلى هذا تم الاهتمام بها عربيا أيضا، بمجرد أن عرفت الرواية طريقها إلى القراء العرب، إذ (أثرت على مسار السرد العربي حين قرئت مترجمة، نشعر بأثر ذلك على تجارب كل من جبرا إبراهيم جبرا وإسماعيل فهد إسماعيل وغسان كنفاني وإدوارد الخراط)[2]، من خلال ترجمتها من الفرنسية في الستينيات، التي بدأت بترجمة السورية ملكة أبيض العيسى سنة 1963، ثم ترجمة محمد قوبعة في مطلع الثمانينيات وأخيرا ترجمة ثالثة في مطلع الألفية الثالثة للسعيد بوطاجين.

اعتبرت رواية نجمة رواية الجزائر بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حتى وإن كان الصخب الإعلامي العربي العام، منذ ترجمت إلى العربية، واستقبالها على الفور كجزء من النضال الثوري الجزائري وشعاراته، قد غطيا دائماً على قيمتها الأدبية[3]. نجمة كانت منذ البداية أكثر كثيراً من مجرد رواية شعارات وطنية، حتى وإن ربطت، وربطها صاحبها، بروح الوطن المناضل. ذلك أن نجمة في عمق أعماقها هي عمل شاعري عن الكرامة الإنسانية، عن كل ما يحفظ هذه الكرامة، عدواً كان أم صديقاً، وعن كل من يمزق هذه الكرامة. ويبرز ذلك من خلال توظيف العناصر الوطنية في المتن كأحداث الثامن من ماي 1945، والعناصر التراثية والدينية كالاحتفالات بالمولد النبوي وانعكاس ذلك على أمزجة الشخصيات وردود أفعالهم.

لذا، فإن شخصيتها المحورية هي رمز لهذه الكرامة حين تقاوم. غير أن المقاومة عند كاتب ياسين، ليست فعل عنف وقتال وأصوات عالية، بل هي فعل روحي ينبع من الداخل أكثر مما ينبع من الخارج. ولأن نجمة رواية تتحدث عن هذا النضال الداخلي، من طريق امرأة، بدت وتبدو دائماً رواية أكثر تعقيداً وتركيبية من المعتاد. من هنا، ما كان كاتب ياسين يرويه من أنه حين عرض الرواية على الناشر الباريسي للمرة الأولى أواسط خمسينات القرن العشرين، قال له هذا بعد أن قرأها: (إنها عمل شديد التعقيد. لديكم

يا عزيزي خرفان كثيرة في الجزائر، فلماذا لا تكتب رواية تتحدث عن هذه الخرفان؟)[4]. طبعاً، سيغير هذا الناشر رأيه لاحقاً، لا سيما حين سيتبنى كبار كتاب فرنسا ونقادها في ذلك الحين، الرواية معلنين عبرها ليس ولادة أدب جزائري جديد فقط، بل ولادة لغة فرنسية جديدة أيضاً .ولكن من هي نجمة؟

الدائرة السردية:

1. الحقل الفني لنص نجمة:

اعتبر بعض الباحثين أن أسلوب كاتب ياسين ينحو إلى الشاعرية في أغلب أعماله، وهذا يظهر في المضلع النجمي مثلا وفي مسرحياته، التي اتخذت من نجمة وقبيلة كبلوت دائرة للاهتمام، فقد بيّنوا أن ذلك يعود إلى تنشأت كاتب ياسين الأولى. إذ يجمع الدارسون أن والدته كانت تحب الشعر الملحون وترده، بينما كان والده الذي اشتغل في سلك العدالة، يقرض الشعر. إذن حينما ندرك أن هذه الأجواء الفنية قد أثرت في البناء النفسي والمعرفي لكاتب ياسين، لا يكن مستغربا أن نكتشف بأنها بناء الشكل الفني لنص كاتب ياسين يماثل بناء القصيدة العربية. وهذا ما انعكس على بناء رواية نجمة التي برزت كدائرة سردية تنطلق من نقطة وتعود إليها[5]. والأكثر ملاحظة وبروزا أن كاتب قام بكتابة عمله نجمة في شكله الدائري حينما انطلق من حدث فرار إحدى الشخصيات وهو الأخضر من السجن لينتهي النص بالمشهد نفسه، (وتكون الرواية بذلك قد قفزت في هذا المقطع الذي انتهت به على حوالي خمس وعشرين صفحة، وعلى مجموعة من الأحداث التي كتنت قد تناولتها في مطلعها)[6]. لذلك ابتكرت القبيلة العربية في أزجالها وقصائدها قالبا استعان به الروائي في كتابة النص السردي مثلما استثمره في نصوصه الشعرية السابقة، وقد برز هذا التفاعل وهذا النوع من المحاكاة الفنية من خلال نقاط أساسية، أشار إلى بعضها نقاد اهتموا بالشكل الدائري للنص الروائي، وقد اضفنا بعضها متوخين الإشارة إلى التماهي بينها، وقد تمثلت هذه العناصر في:

1.1. الأصل العربي:

كانت البيئة العربية هي النواة الأولى للشعراء الجاهليين في نشر قصائدهم في الأمصار

قبيلة كبلوت التي كبت عنها كاتب ياسين من خلال الأصوات الروائية الأربعة، أتت من المشرق، وبهذا فالأصل العربي هو النواة التي تشكلت حولها القبيلة. كما أن نجمة، وتكرارها في الرواية تحفل بالمفهوم العربي للبروز، ذلك أن جذر الكلمة هو في الأصل "نجم" بالتذكير، واستعمال الاسم الأنثوي ما

هو إلا تعضيد لارتباط الروائي بالتغزل بنجمة، وهو ما يناظر في الشعر العربي من توظيف لصورة كل من القمر والنجوم في اسقاطاتها الغزلية.

2.1. الرحلة:

بدأت رحلة القبيلة من الشرق الأوسط مرورا بأيبريا ووصولا إلى شمال إفريقيا وتستقر في الأخير في الشرق الجزائري. كذلك كانت المسار الذي انتهجه أبطال الرواية الأربعة (رشيد ولخضر ومصطفى ومراد)، في البحث عن مكان يأويهم ويبعدهم عن القوات الفرنسية، منطلقين من نقطة البدء المتمثلة في الورشة والعودة إليها، كنوع من الدوران حول حلقة البحث التي لا تنتهي. ونجمة من جانب آخر تمثل منطلق الرحلة وهدفها الأبرز، فأبناء قبيلته المتبقين يرون فيها الهدف، لأنها تحيل إلى بؤرة الصراع بينهم ونقطة بدء المعاناة والحياة معا، وفي الآن نفسه منتهى الرحلة ونقطة الوصول، في رحلة تمثل لأبناء كبلوت من الشباب الأربعة، أملا في الاستحواذ على نجمة من جديد والظفر بها، تحقيقا لأسطورة القبيلة وابنائها.

3.1. خصوصية الشعر:

الدارس لتاريخ آداب العرب يعرف أن القبيلة العربية (إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصُنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج)[7]، فهذا يبرز الدور الكبير للشعر عند العرب، إذ هو صورة القبيلة وصوتها، والشاعر فيهم سفيرها وسلاحها بل ولسان حالها[8].

4.1. الشجاعة والقوة:

الشجعان من الرجال هم من يذودون عن حياض القبيلة ويدافعون عنها، والفارس هو من يتمسك بقبيلته مفاخرا بها مستميتا في حفظ شرفها إلى آخر نفس، ولا يتحقق للقبيلة العربية وجود إلا بقوة فرسانها وشجاعتهم.

(وقد اشتهر العرب قبل الإسلام بالصفات والخلال الكريمة التي كان للطبيعة الصحراوية وشدة الجدب وقسوة الحياة أثرها في تطبيعهم بها وغرسها في نفوسهم. وصارت وفرة الفضائل وتنوع المأثر من سمات التميز التي اصطبغت بها فطرتهم. وكان من اهم صفاتهم الجليلة التي تغني بها الادباء والشعراء على مر الزمان المروءة وعلو الهمة والوفاء بالعهود والشجاعة والفروسية والكرم الخيالي. فلم تكن خصلة عندهم تفوق الكرم واغاثة البائس الفقير. وكان الكرم اللامحدود يمثل احدى مفاخرهم التي يحرصون عليها. فكانوا

يتباهون بكثرة الاضياف ونحر الإبل واطعامها المحتاج، لان الميل الفطري للعطاء هو من اهم سمات سخاء العرب المشهور، والكريم عندهم هو من اعطى فحرم نفسه وبذل من نصاب حاجاته الضرورية. فلما سئل قيس بن سعد: (هل لقيت أكرم منك؟ فأجاب: اجل. لان المنح لا يسحق الثناء إذا كان المرء موفور النعمة وانما يستحق الثناء من اعطى من قليله). لقد وجد العرب في فعل الخير شرفا يخلد على مر العصور. يتضح ذلك من رد حسان بن سهل على من قال له: (لا خير في الإسراف فقال حسان: لا اسراف في الخير).

وكأن نص نجمة يمثل شكلا سرديا يهدف استحضار تلك الصفات والخصال، ويبرز ذلك من إصرار الشبان الأربعة عن التمسّك بالبحث عن نجمة على مدار الرحلة الشاقة، التي قطعوها عبر الشرق الجزائري في سبيل الظفر بها وإعادة إحياء الدم القديم. ولم يترك الشبان الأربعة واحدا منهم وقد أصيب خلال فرارهم من الورشة، بل حملوه معهم وبقوا إلى غاية ان تماثل للشفاء وهذا أشبه ما يكون بالوفاء لابن العشيرة مهما تكن الظروف، وهي خصلة أقرب إلى أبناء القبائل الجاهلية في سبه الجزيرة

5.1. المرأة:

يمثل بقاء نجمة بين أطلال قبيلتها كبلوت، هو ربط بين المرأة والطلل يشابه مثيله في القصيدة الجاهلية، وبث تعاليم قبيلتها الكبلوتية ليست سوى صورة معدلة للمقدمة البكائية والغزلية التي تستهل بها القصيدة الجاهلية. (فتتقابل هكذا تعاليم مع الشعر ويتقابل كبلوت مع الشاعر)[9]. من جانب آخر، يبرز في النص الروائي ارتباط وصف نجمة (الشكلي والمضمر) بكونها أقرب إلى أسطورة قبيلة كبلوت، في كونها تلك المرأة المستحيلة المنال، وهي بذلك تتقاطع مع المرأة التي يتوق إليها الشاعر الجاهلي، إذ أنها بالنسبة إليه مكتملة الجمال والغنج، وأن مطلبها أكبر من كونها جسدا فحسب، إذ هي مرآة للحياة بأكملها. وتظل مكانتها في القبيلة سببا في تصويرها بتلك الهالة الأسطورية. فهي إضافة إلى كونها شرف القبيلة ورمزية جمالها، هي عذرية الحياة ومسألة الظفر بها تحتاج إلى مشاق وبحث تشكلت عناصره في بناء القصيدة الجاهلية ذاتها، وهو ما تقاطع مع رواية كاتب ياسين ذي الخلفية الشعرية من جهة أمه (كما سبق الإشارة إلى ذلك فيما سبق).

6.1. كبلوت:

كانت فرنسا تضطهد القبائل الجزائرية التي تقوم بأي شكل من أشكال الثورة وتعاقبهم بطرق شتى، والتي كان من أقساها تحريم تسمية القبيلة أو ترديد اسمها، وهذا الشكل من العقاب يتماهى مع ما

كان رائجا عند العرب، من منع العاشق من الزواج من محبوبته وخصوصا الشعراء، فيحرم الشاعر من محبوبته متى ما ذمرها وهذا جعل المستعمر يحرم اسم كبلوت إلى الأبد)[10]. وجريا على ذكر الأماكن في القصيدة الجاهلية، كان اسم كبلوت متكررا في النص الروائي بشكل واضح. وكأن هذا التكرار موقف من الروائي (مثلما كان الشاعر العربي يُصرّ على ذكر مضارب محبوبتها وقبيلتها)

7.1. الخراب:

أبرز موقف يشير إلى الخراب هو هدم المسجد، الذي رمز إلى هوية المكان، وهو يشير إلى الأثر الباقي أي مجرد طلل، فالمسجد المنهدم وقتل من كان به موقف يصوّر الخراب والفناء، وهو ما كان يقف عنده الشاعر الجاهلي الباحث عن الحياة وسط أكوام الموت.

إذا كان الخراب في الشعر الجاهلي يحيل إلى الأطلال والدمن، ويُذكر بأيام الحبيب الخوالي وديارة، فإنه في نص نجمة متعلق كذلك بخراب قبيلة كبلوت، ومضاربها ورمز بقائها المتمثل في المسجد والدور. كأن خراب المكان انعكس على ذهاب أبناء القبيلة وانتشارهم في أرض الجزائر.

8.1. دار نجمة:

في الرواية سبق الإشارة إلى دار نجمة، الحديث عن نجمة ذاتها، مُصورا إياها من خلال الصفات فحسب[11]. فكبلوت القبيلة ذات الجذور المشرقية، رغم كونها منبت الشبان الأربعة ونجمة وسي مختار الأب، إلا أن دار نجمة، هي الموطن الآخر الذي سافر الأبطال إليه للبحث عن ملجأ يجعلهم قريبين من نجمة، وبعيدا عن عيون الفرنسيين، التي تترصدهم أينما ذهبوا وحلّوا وارتحلو. وعندما وقف أحد الشبان الأربعة بباب دار نجمة، جعلنا ذلك نستحضر دون شك ما قاله عنترة في معلقته وهو أمام دار عبلة: **(يا دارَ عَبلَةَ بِالجَواءِ تَكَلَّمي، وَعَمي صَباحاً دارَ عَبلَةَ وَاِسلَمي)** فكما تساءل الشاعر عن طريقة ليزورها بها وقد أقام أهلها وقت الربيع بموضعين وأقام أهله في موضع بعيد عنها، وبين المواضع مسافة كبيرة ومشقّة في السفر، فكذلك فعل ابن كبلوت حينما وقف أمام دار نجمة متسائلا هل بمقدوره أن يظفر بها وهي خلف أسوارها. وقد سبق الحديث عن دار نجمة في الرواية، بسرد طفيف عن شخصية نجمة، ولكن دون ان يذكر هذه الشخصية بالاسم، لأن صفاتها تحيل القارئ إليها، باعتبارها تلك الشخصية الأسطورية التي لم تلد القبائل مثلها، ومن تلك الأوصاف ما نجده يتكرر في النص الروائي: الطيف والمرأة ذات الشعر الأصهب وصاحبة الحجاب، وكل تلك الصفات يتابعها القارئ من خلال المونولوج الداخلي لأحدى الشخصيات الرئيسية (مصطفى)، بعد أن التقى بها في طريق العودة، وما يحدّد تلك الأوصاف أو بعضها

مما علقت في ذهن السارد يقول (كل هذه المنازل الفخمة، وتلك القصور الواعدة المخلفة، التي كانت تتسمى بأسماء نساء). والمسار الذي ترسمه الرواية في وصف دار نجمة من خلال السارد، تحيل إلى مسير القبيلة وكأن الهدف كله وراء تلك المشاق والترحل هو لملاقاة، ما يسميه السارد بـ الطيف. وهو أقرب إلى ذلك الطيف الذي وقف عنده الشاعر الجاهلي، دون أن يذكر المحبوبة بالأمس، ويكتفي في أحايين كثيرة مثلما فعل الروائي، بذكر صفات المعشوقة.

2. الطلل:

يتمثل الطلل في نجمة في دارها، التي يتم وصفها من السارد على أنها كانت تشرف على فناء منزل تسكنه الجن والأشباح (منزل انتحرت فيه أسرة قبل الحرب انتحارا). والمقطع السابق تكثر فيه التعابير عبارات الخراب والموت والبقايا، مثل (تسكنه الجن والأشباح، انتحرت فيه، نخره السوس، احرقته فأحالته ترابا، وقد أرسلت أشواكها)، بينما تطفو على النص أبرز صورة تشهد على تمام الأسى الذي خلّفه الوقوف على الطلل من خلال نجمة في الجملة التي تقول (كأنما هو يعبّر عن حرقة وطن شحيح بالماء) فالماء الذي بالكاد يتم إيجاده، هو إشارة عن الحياة المفقودة في المضارب[12]. إضافة إلى ما تم الإشارة إليه، في آخر عنصر عن عناصر الشبه بين القصيدة الطللية ونص نجمة السردي، فهناك عناصر أخرى تتداخل بين القصيدة الجاهلية ونجمة تتمثل في المضارب والقبيلة والرحلة، التي يرسمها المحبّ الجاهلي في قصيدته، ولذلك سنتتبع بالشواهد بقية العناصر، التي تتماهى معها. كما (نجد أن الدلالة اللغوية لمفهوم الطلل لا تختلف في المجمل عما درج الشعراء والنقاد على توظيفه من معنًى، فهي تلك المواضع والأماكن التي أقام فيها الشاعر الجاهلي في فترة من فترات حياته المليئة بالأحداث والمغامرات، ثم جاء زمن واندرست وعفتها الرياح والرمال الصحراوية التي تعاقبت عليها، فلم يبقَ منها غير أجزاء بسيطة شاخصة تُذكِّر الشاعر عندما يعود إليها ويقف عندها متشوقًا باكيًا بتلك الأيام الخالية الهنيئة مع الأحبة الظاعنين، فتذرف عيناه دموعًا حارة تشبه إلى حد كبير في قوتها وغزارتها وشحنة عاطفتها تلك التي تنزل إثر موت عزيز، أو فقدان حبيب ترك فقدانه ورحيله في النفس جراحًا عميقة لا تندمل، وخلَّف في القلب آلامًا معنوية لا تزول ولا تشفى، هذا ويذكر بعض الدارسين في دراستهم مصطفى ناصف في إحدى قراءاته مفسرًا الظاهرة الطللية ما يلي: (ليس هذا الفن إذًا –ويقصد المقدمة الشعرية الطللية – ضربًا من الشعور الفردي الذي يُعوَّل في شرحه على بعض الظروف الخاصة بشاعر من الشعراء، وإنما نحن بإزاء ضرب من الطقوس التي يؤديها المجتمع، أو تصدر عن عقل جماعي – إن صح هذا التعبير –لا عن عقل فردي أو حالة ذاتية).

3. المضارب:

ينتقل السارد من وصف الدار إلى وصف المضارب أين توجد الدار به، وقد جاء وصف الدار بدءا من معقل القبيلة بالناظور، وأهم المعالم هناك، إذ جاء وصف المسجد والجريمة التي حلّت به، ثم تنقل أبناء القبيلة وتشتتهم في منطقة الشرق الجزائري، ووصولا إلى تتبع مسار نجمة إلى غاية البيت الذي سمّي باسمها بعدما أجبرت على الزواج من أحد معارف رفيقة والدتها بعنابة. وقد جاءت هذه المحطات والانتقال بين المضارب تبعا لما تسير عليه القصيدة الجاهلية في طريقها الدائري، التي تنتقل من وصف الدار إلى المضارب، خصوصا وصف ما يحيط بها وساحتها التي منها تنطلق القافلة، الضاجة بالحركة ذهابا وإيابا، وهو شكل من الاستعداد للبدء بالرحلة، والانطلاق نحو عوالم أكثر خصوبة في الأرض وثراء بالماء والكلأ، وهو ما نجده في قصائد كل من عنترة وزهير[13]. ورغم أن القصيدة الجاهلية تحتفي بالوقوف عند الطلل وتذكّر المحبوب إلا أن المكان فيها، أهم دور في نسقها اللغوي والبلاغي، وقد تنوعت في القصيدة الجاهلية توظيفات المضارب ولكنها اشتركت كلها إما في الحنين إليه أثناء سلوك طريق الترحال، أو التذكير بالرجوع إليه بعد حين.

4. القبيلة:

من صفات القبيلة التي كانت معروفة الكبرياء، وهي صفة ملازمة لكل قائد أو شيخ قبيلة تجعله قادرا على اتخاذ القرارات وتنفيذها، والقرار الذي كان منتظرا هو قرار الرحيل وتحديد الوجهة والهدف، وفي الأخير لن تكون الوجهة النهائية إلا العودة إلى المضارب والحي كي يكتمل رسم الدائرة وهي إشارة إلى دائرية الحياة والوجود. فالخلق ثم الموت ثم البعث. كما كان نص نجمة على ضوء هذه الصفات حافلا بتلك المناقب، التي انعكست على بعض الشخصيات، مثل شخصية سي المختار التي أخذت على عاتقها مهمات القائد وشيخ القبيلة وفي مواطن كثيرة الأب (من خلال الفصول التي رافق فيها سي مختار إلى كبلوت، تبرز تلك العلاقة حينما استحضر اعترافاته إلى أحد أصدقائه بأن نجمة هي بالفعل أبنته من امرأة يهودية، كان يعاشرها لفترة طويلة). ولم يكن سي المختار إلا آخر الشيوخ ممن تبقى من نسل كبلوت، وهو الذي رافقها مع الشبان الأربعة حين قررت الذهاب إلى قسنطينة. لم يكن سي مختار حامل مشعل القبيلة فقط، بل كان رشيد هو الظل الدائم لها، بالأخص حين دافع عنها في محاولة (الرجل الزنجي) للقضاء عليه، عندما رآهما في مضارب القبيلة.

5. الرحلة:

نستطيع بيسر تتبع مشهد الأطفال في نص نجمة وهم يلعبون، وهو نوع من بث الحركة في المشهد ونوع من التأهب للرحلة، المعادل للاستعداد لها في القصيدة الجاهلية، وكأي رحلة هناك زاد ومتاع يحملان كي يستطيع الرّحل مواصلة المسير وهو ما نجده في نجمة في التعبير الموالي: (كنت ترى دفعة من أوراق الشجر، تنحصر على أرض حمراء... ينساب عليها ماء ينبع من عين قريبة)[14]. فرغم شح الماء فهناك إشارة أن النبع يوجد في المضارب وبمجرد الابتعاد عنها تبدأ رحلة البحث عن الماء مرة أخرى، ولم لا ترقب العواصف الماطرة، التي وصفها الشاعر الجاهلي حينما وصف الوادي العظيم الممتلئة شطآنه بالمياه وهو ما جاء في قصيدة النابغة[15]، كما وتتماهى هذه الصورة مع نص نجمة، حينما انتقل السارد أيضا من نبع الماء إلى الوادي ثم إلى البحر (قليلا ما ينزل [الماء] على سهول الشرق الجزائري، لكنه يتدفق مدرارا إذا ما أمطرت السماء، فيلقي نهر السيبوس حمله العجيب على دفق عباب مزبد بعد أن أشرف على الفناء، وقد تقيأته الشطآن)[16]. ولا تتوقف الاستعدادات للرحلة عند التزود بكل ما يعين عليها، ولكن على أبناء القبيلة أن يبقوا سوية كفريق واحد، شاقّين مسارا واحدا ويتأمر عليهم شخص واحد هو كبيرهم في العادة، كي لا تختل خطط المسير ولا تتذبذب عادتهم في التزود بما يعينهم على اكمال الرحلة، وهذا ما نراه يتماهى مع نص نجمة، حينما كان الشبان يسيرون مع بعض وفي لحظات قليلة جدا، يُبدي أحدهم رأيه في ظل اسناد المهمة الرئيسية لأكبرهم (والجزء الذي يسير فيه سي المختار رفقة نجمة ورشيد ومراد، يُشكّل عينة على ذلك النوع من الترحال). كما يصور أحد الساردين، وهو هنا سارد عليم، وصفه لدار نجمة في عنابة مشبها إياها بالوطن حينما قال (ذلك هو وطن المتسولين، ووطن المقبلين على أطايب الحياة ولذاتها، وطن الغزاة من كل جنس، يفكر مصطفى ووطن النساء المحتجبات والنساء الاتي يصبن كالدهر أو كالقدر)، فهذه صورة متماهية مع مسار الرحلة في القصيدة الجاهلية. فالدار التي تتبعنا أوصافها هي في الحقيقة دار عتيقة، يملؤها الفراغ وتسكنها الوحشة، وعلى بقاياها ينطق الموت وكلها دلالات تمثل صميم القصيدة الجاهلية، كما أن الاستطرادات في وصف نجمة ودارها ورحلة الوصول إليها وإبراز مفاتنها، كلها استطرادات تعج بها القصائد الجاهلية الطوال. وهناك عنصر آخر لتصوير الرحلة استعاره الروائي على ما يبدو من القصيدة العربية الجاهلية، وهو لحظات البكاء، ففي إحدى المشاهد يبرز السارد بكاء التلميذ الفرنسي الذي كان يقاسم مصطفى الصف، وذلك وحشة لفراق أمه وأهله وبيته، وفي عمق النص الذي يبرز كل تلك المعاني، من خلال ما قاله السارد: كان البكاء بدموع ساخنة، إنها ساعة القهوة بالحليب،

فاستحضار ساعة تقديم الحليب، هو لحظة لقاء الابن بالأم في حقيقة الحال، والاشارة إلى الحليب ليس إلا إحالة على تلك الأنوثة التي ضاعت من يديه. وإذا استحضرنا هذا المشهد بالمقدمة الطللية، تبين أن الأمران متماهيان معا فالشاعر يبكي لفراق المحبوب والفرنسي الصغير يبكي لفرق الأم الحبيبة.

6. خاتمة:

انطلاقا من تلك المقاطع التي تُعطي للرحلة ميزتها وخصوصيتها، يمكننا القول في الأخير، أن نص نجمة الروائي، الذي ينطلق من وصف دار نجمة وينتهي بوصف نزول الرحلة إلى مكانها المستجد، هو سرد يصلح ليكون مسجلا بدقة رحلة الشاعر الجاهلي، وهو تسجيلٌ مفصل لرحلة قبيلة نجمة (كبلوت) من الشرق الأوسط إلى بلدان المغرب العربي ليقطع البحر على كتن سفينة صوب أيبيريا، ليستقر أخيرا في الجزائر. ويستحضر من حين إلى حين عبر تقنيتي الاستحضار والاستباق تاريخ القبيلة ومعاناتها، وكثير من رحلاتها السابقة ويسجل رحلات ثانوية شملت كل أبطال النص، بدءا بـ نجمة ووصولا إلا سي مختار الذي حكى للشبان رحلته للأراضي المقدّسة، والأماكن التي توقف عندها، فهذه الرحلة العكسية التي بدأت من ميناء عنابة مرورا بموانئ كل من تونس وطرابلس والسويس وجدّة، انتهت في الأخير إلى الحجاز، وهي بذلك رحلة العودة إلى نقطة البدء.

هكذا نستنتج أن هذه الرحلة السردية ما هي إلا محاكاة للرحلة الجاهلية وهي وصف لما أسميناه الدائرية السردية المستوحاة من دائرية القصيدة العربية الجاهلية. بدت من خلال تأثر الروائي بالقصيدة العربية في مبناها وفي معانيها وبدا جليا انعكاس ذلك التأثير من البناء الشعري إلى البناء السردي، كما أن رواية نجمة في الأصل هي مشروع شعري من خلال الارهاصات الأولى، التي عبّر بها الروائي نفسه عن تجربة إنسانية واقعية، فإن عوالمها غرفت من القصيدة العربية الجاهلية دون وعي من الكاتب حينا، ووعي منه في أحايين كثيرة أشكالها وأجزائها الوصفية بناء ومجازا، وهكذا تولّد هنا ما نستطيع تسميته تواؤم بين الرحلة والدائرية في مساريهما، وهو نتيجة فنية لعالم نجمة السردي القائم بمادته وبنائه على عناصر دائرية القصيدة الجاهلية.

هوامش:

[1] Jaqueline ARNAUD, la littérature maghrébine de la langue française II, (1986) le cas de Kateb Yacine, (Paris), Publisud, p190

[2] جريدة العرب، العدد 11401.

[3] جريدة الحياة، 5 يونيو 2015.

[4] KATEB Yacine, Nedjma, (1996), Édition du Seuil, (France) : p7.

[5] محمد السعيد عبدلي، عالم كاتب ياسين الأدبي، (2009) الجزائر، دار القصبة للنشر، ص: 30.

[6] محمد السعيد عبدلي، المرجع السابق، ص: 50.

[7] جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، (2012)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (مصر). ص: 105.

[8] أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، (1981) دار نهضة مصر للطبع والنشر، (مصر). ص: 30.

[9] محمد السعيد عبدلي، المرجع السابق، ص: 54.

[10] كاتب ياسين، نجمة، ترجمة محمد قوبعة، (1987) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 133.

[11] كاتب ياسين، المرجع السابق، ص: 66.

[12] كاتب ياسين، المرجع السابق، ص: 67.

[13] الخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر، (1997)، دار الكتب العلمية، (لبنان)، ص: 272.

[14] كاتب ياسين، المرجع السابق، ص: 67.

[15] الخطيب التبريزي، المرجع السابق، ص: 206.

[16] كاتب ياسين، المرجع السابق، الجزائر، ص: 67.